من تجارب تعليم العربية فى أفريقية

للدكتور عبد الله الطيب

كان من أول همى حينما كلفت الإشراف على كرسى اللغة العربية بجامعة الخرطوم سنة ١٩٥٦م أن أنشئ قسما خاصا بتعليم اللغة العربية للجنوبيين من قطرنا ، يمكنهم من نيل الإجازة الجامعية فيها ثم التخصص من بعد . وقد وجدت الفكرة ضروبا من قبول ومعارضة . أما القبول فلأن الدافع القومى الوطنى كان يدعو إلى أن تكون لغة البلاد واحدة ، فكان أن تبادر الجامعة بعمل نافع فى هذا المجال مما يعين على الاستجابة لهذا الدافع القومى الوطنى . وأما المعارضة فلأن كثيراً من الأساتذة كانوا يكرهون أن تنزل الجامعة بمستواها الرفيع إلى تعليم المبتدئين ، وكان من هؤلاء أجانب ماخلوا من بعض التعصب على العربية واشتمام ريح هبوب عاصفة إسلامية من تلقائها .

وكان مما صحح العزم عندى على المضى فى ما هممت به والدفاع الشديد عنه تجربتان سابقتان . التجربة الأولى كانت فى معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن حيث شهدت أساليب الاستشراق فى تعليم العربية لمن لم يسبق لأكثرهم عهد بها قبل الالتحاق بالجامعة ، أساليب دراسة مكثفة تعتمد على التحصيل الجاد المتتابع الدوب . وقد عملت محاضرا عام ١٩٥٠م بالمعهد وشاركت فى تدريس طلبة الإجازة الجامعية كما شاركت فى تدريس المنهج المبسّط الذى كان يتاح لفئة من الدبلوماسيين ورجال الحربية البريطانيين الذين كان يراد منهم أن يعملوا فى الشرق الأوسط . وقد نقل هذا المنهج المبسط بأسره من بعد إلى لبنان وعرف باسم "منهج شملان" وهى البلدة اللبنانية التى أقيم بها معهد ذلك المنهج . وكان فى النادى الملكى المصرى بلندن معهد صغير لتدريس مبادئ العربية بذل فيه جهد حسن ، فكانت بعض قطعه المبسطة

المطبوعة مما استعين به أو قيس عليه فى بعض ما أعده منهج شملان .

والتجربة الثانية كانت فى معهد التربية ببخت الرضا بالسودان . وهذا معهد أقيم لتدريب مدرسى المدارس الأولية والوسطى وإعداد مناهجهما فى بلدة الدويم الواقعة على الشاطئ الأيسر من النيل الأبيض على بعد نحو من مائتى كيلو متر جنوبى الخرطوم . وقد كانت انتقلت للعمل به فى سنة ١٩٥١م وعهد إلىّ فيه الإشراف على مناهج العربية للمدارس الوسطى فى بلادنا وتدريب المدرسين لهذا الغرض .

أذكر بهذه المناسبة أن منهج اللغة العربية للإقليم الشمالى فى بلدنا واحد ، إذ اللغة العربية فيه هى لغة الحضارة والدين والنشاط الاجتماعى والتجارى والإدارى جميعه . وما زال الأم منذ الدهر القديم الذى لا نعلم مبدأه . حقا أن الإقليم الأوسط من بلادنا لا يعرف لغة غير العربية ، وأن الأقاليم المحيطة به جميعها لها لغات غيرالعربية ولكن الأطراف الشمالية والشرقية والغربية من بلادنا جميعها مسلمة ، دخل الإسلام بعضها فى المئة الأولى من الهجرة ، فكان أبناؤها يتعلمون العربية من طريق المشافهة للمداولات اليومية فى البيع والشراء ونحو ذلك من ضروب النشاط الاجتماعى ويتعلمون الكتابة والنحو والإنشاء فى المدارس وكانوا فى الماضى يتلقون ذلك فى خلاوى القرآن . فكان لهؤلاء لغتان : العربية بنوعيها الدارج والفصيح ، ولغتهم المحلية التى يجعلونها لسانا خاصا بينهم وربما نسيها بعضهم أو تناساها .

أمر الجنوب كان مختلفا . فقد كان فى جملته معزولاً عن الإقليم الشمالى عزلا تاما إلى زمان قريب . بعض هذا العزل كان منشؤه وعورة المسالك إليه مما جعل تاريخ بلادنا القديم لا تتجاوز حدود توسعه الخط الثانى عشر من خطوط العرض الشمالية ، وأكثر هذا العزل فى هذا القرن كان مرده إلى سياسة مقصودة متعمدة من جانب الاستعمار

اختطها حاكم السودان العام السير لى ستاك " Sir Lee Stack " سنة ١٩٢٢م عرفت فيما بعد بسياسة الإقليم المغلق "Closed District" وقد استمرت هذه السياسة معمولا بها إلى أن جعل الضغط الوطنى القومى يشتد فى سنوات الأربعين والخمسين . وكان التعليم فى الجنوب طوال أيام أمدها موكولاً إلى الجمعيات التبشيرية المسيحية . وقد قسم الإقليم الجنوبى إلى مقاطعات جعل لكل جمعية من هذه الجمعيات جزء مقسوم من أجل درء التنافس بينها . وقد كان الإسلام مصدوداً أن يكون له أدنى نصيب فى مثل هذا التقسيم . وكانت الجمعيات التبشيرية قد اخترعت للغات الجنوب الكثيرة المختلفة حروفا لتدرس بها ترجمات من الإنجيل . وكانت الحروف موضوعة على نظام الحرف اللاتينى . وكان يراد للغة الإنجليزية أن تكون هى اللغة المشتركة بين المثقفين من أهل الجنوب وألا يكون للعربية ، وهى مفتاح الإسلام بالجنوب مكان .

وكان نوع من العربية ذو عجمة إفريقية المعدن فى الألفاظ والتراكيب قد نفذ إلى أعماق غابات الجنوب فاستعملته قبائله المختلفات اللغات للتفاهم فى اللقاءات التى كانت تفرضها عليها ظروف التجارة والمصاهرة والصلح بعد الحروب القبلية وغير ذلك من أصناف وجوه نشاط حياة المجتمعات البشرية . ولم يكن فى وسع الإنجليزية أن تنفى هذا اللسان العربى الأفريقى المشترك بين القبائل أو تحل محله لأنها إنما كانت لغة المثقفين وحدهم ، وكان أكثر أهل الجنوب عن الثقافة العصرية التى جاء بها الاستعمار. بمعزل بعيد .

تقرر فى أوائل سنوات الخمسين فرض تعليم اللغة العربية على جميع مدارس الجنوب ، استجابة للضغط السياسى القومى الوطنى . ولكن كانت تحول دون تنفيذ القرار عقبات كثيرة ، بعضها راجع إلى قلة من أعد القيام بهذه المهمة من المدرسين ، وبعضها راجع إلى محاربة خفية وظاهرة لهذا القرار من جانب هيئات التبشير .

فى سنة ١٩٥٢م كلفت كتابة تقرير عن تعليم العربية للجنوبيين وقد زرت الجنوب من أجل هذا الغرض واطلعت على بعض عمل التدريس فى جوبا ولوكا وياى ومريدى ومندرى ورمبيك ، وهذه الأخيرة كانت مدرسة البنين الثانوية الوحيدة فى الجنوب . وكتبت تقريرا اقترحت فيه أن يكون تعليم اللغة العربية على مراحل تكون أوائلها محلية الطابع ، بسيطة المستوى ، ويستمر أمد ذلك نحوا من خمسة عشر عاما ، وفى المرحلة الأخيرة يجلس طالب الفصل النهائى فى المدرسة الثانوية الجنوبية لنفس الامتحان الذى يجلس له مواطنه فى الشمال .

واقترحت مع ذلك أن توفد أعداد من معلمى المدارس بالجنوب ليدربوا فى بخت الرضا تدريبا يؤهلهم للنهوض بأمر العربية شيئا فشيئا فى إقليمهم . وقد لقى التقرير قبولا من المسئولين . وبعث أول فوج صغير من المعلمين الجنوبيين للتدريب فى بخت الرضا فى سنة ١٩٥٣م وكان وعد البداية فى هذا العمل وعدا حسنا . غير أنه صحبت بداية الحكم الذاتى الأولى بداية الاضطرابات الدموية فى الجنوب . ثم ما كاد الأمر يستقر حينا من بعد حتى يتبعه اضطراب . فوقفت هذه البداية الحسنة ، غير أن تقدم العربية وانتشارها لم يقف بالرغم من هذه الاضطرابات .

وأعود بك بعد إلى ماكنت قدمته من أمر استفادتى من تجربتى لندن وبخت الرضا حين عمدت إلى إنشاء قسم خاص لتعليم الجنوبيين العربية وتمكينهم من نيل إجازة جامعية فيها بجامعة الخرطوم . وقد ذكرت أن الفكرة واجهتها أول الأمر معارضة ولكنها أجازتها مجالس الجامعة آخر الأمر . ووضعت لها منهجا ينظر فى جملته نظرا شديدا إلى المنهج المتبع فى معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن وكان مما دعا إلى هذا النظر :

أولا ما كان من صلة قوية بين جامعة الخرطوم الناشئة وجامعة لندن . ذلك بأن جامعة الخرطوم استقلت فى يولية سنة ١٩٥٦م . وكانت قبل استقلالها تعرف

باسم كلية الخرطوم الجامعية وكانت من سنة ١٩٥١م تابعة لجامعة لندن على النحو الذى كان معمولا به فى كثير من جامعات إفريقية مثل إبادان بنيجريا ومكريرى فى شرق إفريقية .

وثانيا الحاجة إلى الاستفادة من تجربة الاستشراق العلمية فى هذا المجال من حيث طرق تدرجها ومؤلفاتها اللاحقة بهذا التدرج والمستويات التى تبلغ بواسطته .

ومما استفدته من تجربة الاستشراق الاستعانة بالترجمة . وبعض العاملين فى مجال تعليم اللغات الآن ربما نفروا من استعمال الترجمة فى التعليم . وأحسب هذا وهما . ذلك بأن المشافهة هى بلا شك أجود وسائل تعليم الكلام وهى التى يتعلم بها الأطفال اللغة من الوالدين والمحيط الذى حولهم . ولكن المشافهة الطبيعية تعسر محاكاتها فى ظروف التعليم النظامى المتعمد . ثم لابد من بداية يبدأ بها هى ، لمن تأمل ، فى حكم الترجمة . الصور التى يستعان بها مثلا ما هى إلا ضرب من الترجمة . ثم لعل الترجمة أن تكون أقرب إلى طبيعة الأمور من الصور . فى الترجمة مأخذ لابد من الإشارة إليه وقد تنبه له الجاحظ من قبل. وهى أن اللغات فى ذات نفسها لها حيوية ويغير بعضها على بعض . فاستعمال الإنجليزية مثلا فى تعليم العربية له بعض التأثير السلبى بلا ريب . ولكن لابد من بداية على أية حال كما قدمنا . ويمكن الاستغناء عن الترجمة بعد تجاوز المبدئيات الأولى . وعيب طريقة الاستشراق أنها لا تتخلى عن الترجمة – وذلك أنها قد بنيت من أساسها على اعتبار اللغة العربية لغة غير حية . فالأرب المقصود لدى الاستشراق هو إعادة إحياء مادتها للاستفادة بها من طريق الترجمة . هذا العيب المستمر فى طريقة الاستشراق قد روعى فى طريقتنا تجنبه وذلك من طريق تزويد الطالب بمختارات نصوص جيدة معاصرة تشهد بحيوية اللغة وأنها عصرية مستعملة – هذا مع العناية بالنصوص القديمة المأثورة التى

هى نماذج فى جودة البيان والفصاحة مع الدلالة الحضارية الراسخة ، مأخوذة من القرآن والحديث وشعر العرب الأولين ومأثورات أمثالهم .

ثم مع النصوص رأينا ضرورة العناية بتعليم الإنشاء وهذا مهمل فى منهج الاستشراق لما قدمنا من افتراضه أن العربية لغة ميتة وأن غاية ما يبغيه منها فهم المعانى وترجمتها إلى لغته الحية لاغير . على أن بعض الاستشراق قد أدركه التنبه بأخرة إلى أن اللغة العربية كما هى لسان حضارة قديمة عريقة إنسانية الشمول ، هى أيضا اللسان الحى المعاصر المعبر عن واقع المسلمين والشعوب العربية .

هذا ، وقد كان الإقبال على القسم الخاص بادئ الرأى ضئيلا وكاد يدعو ذلك إلى الاستيئاس وكأنما قد قوطع مقاطعة سياسية صارمة إذ لم يلتحق به غير طالب جنوبى واحد (هو الأستاذ أروب يور) وطالبة وافدة من زنجبار (هى الأستاذه زينب برهان) . وقد صبرا على سنوات الدرس الأربع وثابرا ونجحا ، وصارا قدوة حسنة ، على بطء فى ذلك ، لطلبة من الجنوب التحقوا بالقسم من بعدهما وبرز بعضهم فى درس العربية تبريزا مشجعا . وقد ازداد الإقبال على القسم من بعد ، وقصده طلبة من خارج السودان ، جاءوا أول الأمر من نيجريا الشمالية ، ثم من نيجريا الجنوبية ثم من الأقطار المجاورة كأرتريا والصومال ثم من شتى أقطار العالم منتسبين وملتحقين من أوروبا وآسيا وأمريكا . ودعت الحاجة إلى وضع دروس محدودة المدى للمنتسبين وإقامة صلات علمية من أجل هذا الغرض مع جامعات من نيجريا وغيرها . كما أضيف إلى المنهج القديم منهج للدراسة العالية ينتهى بامتحان كتابى منصوص فيه على تقديم أطروحة بالعربية ، وكانت جزءاً لا يتجزأ من الامتحان . وممن جلس لهذا الامتحان ونال شهادة الأستاذية به من جامعة الخرطوم (M.A.) البروفسور محمد ثانى زهر الدين الذى هو الآن رئيس

قسم الدراسات الإسلامية بجامعة بايرو بمدينة كنو بنيجريا ومن أبرز رجالاتها والبروفسور أبو بكر بلارابى رئيس قسم اللغة العربية بها .

وقد اقْتُبِسَتْ فكرة إنشاء معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها التابع لهيئة "ألسكُو" الذي بمدينة الخرطوم من فكرة قسمنا الخاص بجامعة الخرطوم الذى قد تقدم ذكره ، وكان الوزير الذى قام بالخطوة العملية في هذا الباب الدكتور محمد خير عثمان وزير التربية فى جمهورية السودان الدمقراطية سنة ١٩٧٣م وهو نفسه من خريجي بخت الرضا وجامعة الخرطوم . وقد كوّن لجنة خماسية تولي هو رئاستها وقامت بزيارة لمصر ولبنان وسورية والعراق والكويت والبحرين وقطر ودولة الإمارات والمملكة العربية السعودية لإطلاع المسئولين على فكرة المعهد والتماس المعونة منهم . وقد وجد كل ذلك قبولا وتشجيعاً . وكنت أنا والأستاذ أروب يور أول خريج جنوبى من القسم الخاص عضوين فى هذه اللجنة ومستشارين . وقد نشأ المعهد من بعد ، غير أنه انحرف به شيئا عن منهاج الوصايا التى تقدمنا بها إذ داخلته روح من التدويل والسياسة المنافسة لجامعة الخرطوم . ولقد كان ينبغى أن يُجعل المعهد منذ بدايته تابعا لجامعة الخرطوم ومكملا لعمل القسم الخاص . وأحسب أن المسئولين الآن قد أخذوا يتنبهون إلى ضرورة تصحيح هذا الخطأ ، إذ لا تكفى سعة النفقة المدَوَّلة والرعاية السياسية لهذا المعهد أن تجعله ذا تأهيل علمى مقبولا حقا ، ولابد فى ذلك من ربط عمل المعهد بالرقابة الجامعية الشاملة وبالمستويات الجامعية ذوات التأهيل المعروف المقبول .

ولقد أنشأت هيئة اليونسكو من قبل معهدا عاليا لتدريب المعلمين بمدينة أم درمان على نهج دمبلوماسى كأنه قد كان النموذج والقدوة من بعد لمعهد اللغة العربية لغير الناطقين بها . غير أن وزارة التربية بالسودان تداركت من قبل أن يقع ماوقع من بعد فى أمر المعهد من الخطأ

الأكاديمى ، بسعيها الحثيث إذ جعلت معهد المعلمين ذا انتماء إلى جامعة الخرطوم ، ثم قد استوعب فيها سنة ١٩٧٤ م باسم كلية التربية .

آمل أن يقع مثل هذا الإجراء بالنسبة لمعهد اللغة العربية .

هذا ، وفى سنة ١٩٥٨م أقيمت ندوة بجامعة إبادان بالولاية الجنوبية الغربية من نيجريا عن الثقافة العربية والإسلامية. وكانت نيجريا آنئذ تحت الحكم البريطانى . وكانت إبادان هى الكلية الجامعية ثم من بعد هى الجامعة الوحيدة فى نيجريا كلها ، فكان المؤتمر المنعقد بها لهذا الغرض ذا أهمية بالغة .

لم تكن اللغة العربية مقررة فى التعليم النظامى فى الإقليمين الجنوبيين من نيجريا . وكانت الثقافة المسيحية غالبة عليهما غير أنه كان فى إقليم شعب اليوربا الغربى نسبة عالية من المسلمين . أما الشمال فكان إقليما مسلما ذا إمارات إسلامية قديمة وتأريخ عريق وصلات واشجة مع شمال إفريقية المسلم ومصر وبلاد المشرق . وكانت فيه مدارس إسلامية قرآنية قديمة وعلماء أجلة لهم تآليف حسان ، ومن هؤلاء لا تزال توجد بقية صالحة مثل وزير سكتو الْمُعَلِّم جنيد وقد سمعت منه أبياتا نظمها فى رحلة ارتحلها إلى مدينة الخرطوم مع السردونة أحمد بلو رئيس وزراء الإقليم الشمالى الشهيد رحمه الله تعالى ، قال فيها :

يامنْ يُصَعِّدُ أنفاسًا بأنفاس
شوقْاً لخرطومَ ذات الوردِ والآسِ
صَبْرًا قليلاً فإنَّا سوف تحملنا
رعّادةُ فى الهوا ملمومةُ الرأسِ
طيّارة تتبارى فى تجاوزها
شُهب السماءِ التى ترمى بأقباسِ
تعُطى الدُّخانَ وتَنهى عن تعاملِنا
به عليها وهذا خلفُ مقياسِ

ومنهم الشيخ ناصر كبارة بمدينة كنو ، وله مجلس يحضره تلاميذه بأيديهم الصحف والألواح فيسألونه فى الأدب والنحو وعلوم التفسير والدين فيجيب ويكتب من شاء ماشاء ، ويقرأون فيشرح الصعب ويصحح الخطأ وقد حضرت

مجلسه وسمعته يشرح لسائل سأله عن بيت الشواهد وهو لجرير الشاعر :

والتَّغْلبِيُّونَ بِئْسَ الفَحْلُ فَحْلُهُمُ
فَحْــلاً وأُمُّهُمُ زَلَّاءُ مِنْطِيقُ

هذا ، وقد أنشئت سنة ١٩٣٤م فى مدينة كنو مدرسة لتعليم العربية والعلوم الإسلامية على نهج حديث ، واستُقْدِم لإنشائها أساتذة ومشايخ من السودان فقاموا بما عُهِدَ إليهم من ذلك خير قيام وتخرج على أيديهم جيل من رجالٍ كفاة . وقد بُعِثَ بعض هؤلاء سنة ١٩٥٤م إلى معهد التربية ببخت الرضا لينالوا مزيداً من التدريب فى طرق التدريس ومناهجه . من هؤلاء من صاروا من بعد قادة فكر ورجال دولة مرموقين فى بلدهم . من هؤلاء مثلاً الشيخ أبو بكر محمود قمى الذى كان قاضى قضاة الإقليم الشمالى كله أيام الرئيس السردونة أحمد بلو رحمه الله ثم قد ترجم معانى القرآن ترجمة حسنة إلى لغة هوسا وقد منح جائزة الملك فيصل العالمية منذ ثلاثة أعوام لما بذله من جهد عظيم فى العمل الدينى والدعوة الإسلامية . ومنهم قاضى القضاة الآن بولاية كنو الدكتور حسن إبراهيم غورزو * . وله تآليف جيد عن الشيخ عبد الكريم المغيلى المغربى وتأثيره على سلطنة كنو فى الزمان القديم أطلعنى عليه وينبغى أن ينشر . ومنهم الدكتور شيخو أحمد سعيد غلدنشى ، سفير دولة نيجيريا الآن بالمملكة العربية السعودية وكان رئيساً لجامعة سكتو وتولى إنشاءها وثلاثتهم كان لهم أعظم الأثر فى النهوض بكلية عبد الله بايرو وتأسيسها وهى التى صارت الآن جامعة بايرو بمدينة كنو .

وقد مهد المؤتمر الذى أقيم بجامعة إبادان سنة ١٩٥٨م لقيام شعبة العربية بجامعة إبادان سنة ١٩٦٧م ثم ائْتَلَبَ بَعْدَ ذلك إنشاءُ أقسام للغة العربية بالجامعات الجديدة التى نشأت فى أقطار نيجيريا وكان مما مهَّد به ذلك المؤتمر أنه نبه على وجود مجهودٍ كبير تطوُّعىٍّ

* توفى رحمه الله منذ أسابيع هذا العام وكان قاضى القضاة بمدينة كنو .

جـهـادى كـان يقـوم به بعض المشـايخ المسلمـين فى إبادان ولاغـوس مكافـحين مناضلين فى سبيل الإسـلام ولغة القرآن بالرغم مما كـان يواجـهـهم من تعـصب الإرساليات ومعـاكسات الحكم الأجنبى وصنائعـه الموالين له . كـان من هؤلاء المعلم خرشى الثانى رحمه الله تعالى . ولم أدر أذلك لقب كـان له أو اسم سـمى به، وكلا الوجهين جائز ، وخرشى الأول ، الذى سـمى هو أو لقب باسـمـه ، شـارح مـخـتـصـر خليل ، كـتـاب الفـقـه المالكى الجامع ، المقدم بين مـتـون الفـقـه المالكى على كل متن . كانت لخرشى الثانى رحمه الله مـدرسـة فى نـاحـيـة سـوق إبادان يقـصـدها الصـغـار فـيـعلمـهم القـرآن ومـبـادىء العـربيـة . وكـان يعـينه بعض الشبـان من المدرسين النظاميين بمدارس الحكومـة فى غير علوم العـربية يتطوعون بدروس إضـافـيـة فى مـا بعـد أوقـات الدروس النظامية . ثم لما قبلت الحكومة أن تدخل علوم الدين ولكن بغـيـر اللغـة العـربيـة كـان القـائمـون بهـذه الدروس يتعاونون مع المعلم خرشى الثانى رحمه الله كل التعاون .

وكان بناحية لاغوس للحاج آدم عبد الله الإلورى نشـاط عظيم . وقـد أثمـر مجهوده المخلص المتواصل ومجهود المعلم خرشى الثانى رحمه الله وفضلاء آخرين من مسلمى بلاد «يوروبا» وعلماء «إلورين» المدينة المسلمة فى أقصى جنوب الإقليم الشمالى قريبة الجوار من منطقة إبادان ، فأُقرَّ آخر الأمر إدخال ذَرْءٍ مِنَ العربية مع علوم الدين فى مـدارس الإقليم الجنوبى الغربى . وبعد قيام المؤتمر الثانى بإبادان سنة ١٩٦٤م تمهـد الطريق إلى إنشـاء نواة قسم للغة العربية فى جامعة إبادان ثم تم إنشاء هذا من بعد كما قد تقدم من ذِكْرِ ذلك .

وقـد حـضـرت هذا المؤتمر الثـانى وشـاركت فيه مع زمـلاء لى حضروا هذه المرة من كليـة اللغـة العـربيـة والعلوم الإسـلامـيـة التى تم إنشـاؤها بمدينة كنو وكانت فى مبدأ أمرها جزءاً من الجامعة الشـمـاليـة الجـديدة التى أنشـئت باسم

جامعة أحمد بلو Ahmadu Bello University بمدينة زاريا الواقعة على بعد مائتى كيلو متر جنوبى مدينة كنو .

مدينة زاريا قديمة التأريخ كانت نعرف باسم زَكْزَكْ وقد يقال زَوْزَوْ والنسبة إليها زكزكي ، ويذكر أنها كانت أولى ولايات بلاد هوسا السبع القديمات اهتماماً بطلب العلوم . وفيها مسجد عتيق ، بديع العمارة مع أن بناءَه من اللَّبِن وخشب الدوم ، فيه عقود محكمات الصنع ، شديدات الشبه بعقود الجامع الكبير بدمشق ، كأنما جعله بناة هذا المسجد نموذجاً ، وعلماء العمارة المعاصرون قد صنفوا هذا المسجد فى مؤلفاتهم ونبهوا على حسنه وإتقانه ، وفى كتاب إنفاق الميسور ، للسلطان المؤرخ العالم الشاعر ، السلطان محمد بلو بن شيخو عثمان بن فودى صاحب الجهاد المعروف ما يشهد بكثرة الكتب التي كانت تدرس في «زكزك» - الاسم الحديث هو زاريا كما تقدم ذكره على أن النسبة إليها مازالت تحتفظ فى لسان هوسا باللفظ القديم فيقال هو زكزكى أى من زاريا .

وقد فطن الاستعمار والتبشير لمكان مدينة زاريا فى التعليم الإسلامى العربى. فأنشأ قرية إرسالية بالقرب منها صارت خلية لأقلية مسيحية نالت ثقافة غربية وشغل بعض رجالها مناصب هامة مثل الدكتور «إسايا أودو» الذى تولى رئاسة جامعة أحمد بلو سنة ١٩٦٦م ثم صار من بعد فى حكومة شيخو شقرى وزيراً للخارجية ومثل يعقوبو قاوان الذى تولى رئاسة حكومة نيجيريا من سنة ١٩٦٧م إلى سنة ١٩٧٤م .

كان الرئيس أحمد بلو السِّرْدَوْنَة (١) رحمه الله يريد أن تنشأ كلية جامعية هوساوية إسلامية تحمل اسمه فى مدينة كنو ، المدينة الإسلامية الكبرى فى غرب إفريقية على وجه الإطلاق ، وتكون من بعد هى الجامعة العصرية التى يتثقف فيها أبناء قومه ويضطلعون بمسئوليات

(١) السِّرْدَوْنَة لقب كأنه تحريف من سر الدولة وكان من ألقاب الإمارة فى بلاد هوسا .

عصرهم الحديث . كان رحمه الله يريد أن يخرج قومه من حال تخلفهم الريفى الرعوى البسيط حتى لا يغلبهم على السيادة فى قطرهم أبناء الجنوب المسيحى الذين نالوا حظاً من تعليم الغرب وتقدمه المادى على أيدى الاستعمار والتبشير .

واحتجزت للكلية الجامعية المزمع إنشاؤها مساحة تبلغ ثلاثمائة وخمسين فداناً فى موقع رحب قابلٍ لمزيد من التوسع بالجانب الجنوبى خارج سور مدينة كنو . ووضع الحجر الأساسى فى حفل عظيم . ثم إنه مالبث أن دب خلاف سياسى حاد بين السردونة رحمه الله وبين الأمير السنوسى ، أمير كنو السابق. وانتهى الخلاف آخر الأمر باستقالة الأمير السنوسى ، ويُذكر أنه قبل استقالته أول ما دب الخلاف بينه وبين السردونة ، وبعث بأناس اقتلعوا حجر الأساس ووقف سير العمل الذى كان تقرر بدؤه من قبل ببناء الكلية حيث اختير لها الموقع .

ووجد التدبير الاستعمارى التبشيرى فرصته المناسبة . فاقترح تحويل إقامة الجامعة من كنو إلى ضاحية بالقرب من زاريا كانت قد أنشئت فيها مدارس للفنون وبعض الصنائع والأعمال الهندسية . وكان جل الطلبة فى هذه المدارس من المسيحيين . وكانت فى زاريا نفسها مدرسة للإدارة فجعلت هذه المدارس جميعاً نواة للجامعة الجديدة وسميت باسم أحمد بلو وترك الموقع الأول وأهملت الفكرة الأولى شيئاً ما غير أن الحكمة السياسية اقتضت ألا يكون هذا الإهمال كاملاً ونهائياً . فأُوثِرَ – من أجل استرضاء أهل كنو وأميرها الجديد أدو باييرو وهو أخو الأمير السابق ، وسائر الرأى العام فى بلاد هوسا – أن تقوم كلية للدراسات العربية والإسلامية تحمل اسم الأمير عبد الله باييرو رحمه الله ، والد الأميرين السابق والحاضر وهو الذى أنشئت فى زمانه وبتدبيره مدرسة العلوم العربية فى كنو سنة ١٩٣٤م كما تقدم ذكره .

على أنه لم يكن واضحاً ما المراد من إنشاء هذه الكلية ، إذ مستوى التحصيل في مدرسة العلوم العربية كان ، وما يزال إلى يومنا هذا ، حقاً رفيعاً ، وقد تمكن عدد من خريجيها بناء على ما حصلوه فيها من نيل الشهادات العالية في الخارج ، من أوربا ومن مصر مثلاً . فلماذا لم تُرَفَّع هي إلى مستوى جامعي كما رُفعت الكليات التي سبقت إنشاء جامعة أحمد بلو بزاريا على سبيل المثال .

تساءلت في نفسي بهذا السؤال لما عرض عليَّ مدير جامعة أحمد بلو ، بروفسور نورمان الإسكندر « فيما بعد سير نورمان إلخ » وظيفة عميد كلية عبد الله بايرو لأتولى إنشاءَها . وما كان خافياً عليَّ أن ترشيحي قد كان من قبل النيجيريين الشماليين أنفسهم إذ كانت لي بهم صلات في ميدان التعليم واشجة . واشترطت أن أزور الموقع قبل قبول العمل فيه . وعلمت من السيد الوزير آنئذ الحاج عيسى كيتا وممن اتصلوا بي واتصلت بهم من القائمين بتعليم العربية في بلاد هوسا على رأسهم الحاج حسين آدم الذي كان مفتش العربية بالوزارة والأستاذان شيخو أحمد سعيد غلدنشي وحسن إبراهيم غورزو وهذان كانا على رأس مدرسة العلوم العربية بكنو – أنهم إنما يريدون إنشاء جامعة هوساوية إسلامية حقاً ، وأن الجامعة التي في زاريا كأنما الغالب عليها الآن طابع غير إسلامي . وأنهم لا يريدون الكلية الجديدة أن تكون امتداداً لمدرسة العلوم العربية أو شيئاً منافساً لها ، وإنما يريدونها لتكون مؤسسة تهيىء المسلمين دون غيرهم في هذه الفترة للتأهيل الجامعي حتى يستطيع المسلمون بنيجيريا أن يلحقوا بغير المسلمين ومن دون أن يزاحمهم هؤلاء بمستويات التقدم العصرى المنشودة .

وقد أدركت منذ البداية أن إدارة جامعة أحمد بلو لم تكن جادة حقًا في أن تجعل من كلية عبد الله بايرو أكثر من ظاهرة اسمية فرعية . ومما أكد ذلك عندى عدول البروفسور نورمان الإسكندر

عن الموقع القديم الواسع واختياره موقعاً صغيراً كانت فيه مؤسسات ومساكن ومخازن تحتاج إزالتها إلى إجراءات قضائية وتقدير تعويضات وما أشبه ، وكل ذلك كان لابد معه من مرور زمن ربما امتد إلى عدة سنوات . وقيل فى تبرير هذا التغيير أإنه متفق مع الخطة المعمارية الكبيرة التى كانت تعد لتطوير مدينة كنو فى مدى خمسين عاماً . ولكأنَّ الأرَب الخفىَّ المخبوء ما كان إلا تأجيل إنشاء كلية عبد الله باييرو . وكانت قد استعير لها مقر مؤقت فى جانب من فندق مطار كنو . فتنقل بعد ذلك من موضع مؤقت إلى آخر مؤقت حتى إذا طال تأجيل الإنشاء طولاً مؤسفاً جىء بالحل العملى الحاسم وهو نقل الكلية كلها إلى منطقة الجامعة بزاريا لتكون فيها قسماً صغيراً للدراسات العربية والإسلامية ، متحفىَّ الصبغة جانبياً «مُهَمَّشاً » فى كيان جامعة علمانية جديدة كبيرة مشربة فى جملتها بالروح الأوربى المادى التقدمى المسيحى المَعْدِن التبشيرىِّ النَّزْعَة . وتبقى بعد ذلك مدرسة العلوم العربية بكنو كما كانت تسند بعض الحاجة إلى أن يدعو داعى التطور العصرى آخر المطاف إلى نوع من الاستغناء عنها أو التجميد لها والتخميد لجذوتها .

ما كان نحو هذا التدبير الخفى المخبوء كله منبعثاً من مكر سيىء متعمد مقصود كما كان منبعثاً أكثره من الجهل كل الجهل من جانب القائمين بإدارة جامعة زاريا وزملائهم فى التدريس الذين قدموا معهم من إبادان أو استقدموا من وراء البحار بحقيقة حضارة الإسلام وحيوية اللغة العربية وعمق تغلغل حبها فى نفوس أهل نيجيريا المسلمين . إنما كانت تجربة أولئك القائمين بإدارة جامعة زاريا وزملائهم تجربة استعمارية مسيحية عنصرية تبشيرية إقليمية المذهب الجامعى الإدارى « الأكاديمى » ، لم تنْعَتِقْ فى طبيعة إقليميتها من أصول نشأتها فى مجمَّع إبادان الجامعى ذى الوضع الممتاز الأفرنجى التصميم الغربى الرفاهية وسط الكيان الإفريقى البائس الصارخ البؤس المحيط به .

من عجائب هذه الطبيعة الإقليمية أنى لما قدمت إلى الموضع المؤقت الذى اختير لكلية باييرو فى فندق مطار كنو وجدت أن جميع الموظفين الصغار فيه إلى المحاسب والكاتب وأن جميع العمال المهرة وغير المهرة من الطباخ إلى الغسال والكناس قد جيء بهم من أقصى قرى الجنوب بنيجيريا بناحية مصب نهر النيجر وشطآن خليج بيافرا . ومدينة كنو نفسها كثيرة السكان عظيمة العمران فيها من المدربين على صغيرات الوظائف المكتبية ومن العمال ذوى المهارة وغيرهم عدد عظيم قريب المنازل قليل التكاليف مسلمون أشبه بروح المؤسسة الإسلامية الجديدة من هذا الجلب المسيحى الغريب الديار .

كان القائمون بإدارة جامعة زاريا بقبولهم فكرة إنشاء كلية عبد الله باييرو للعلوم العربية والدراسات الإسلامية إنما أرادوا فقط أن ينصاعوا أول الأمر للسردونة إذ لم يعجبه فى تدبيره السياسى أن يُعْدَل عن فكرة إنشاء هذه الكلية بمدينة كنو كل العدول ، ثم يكسبوا الزمن من بعد .

ما كنت لأساير سياسة هذا الأرب المخبوءِ على أيما وجه من الوجوه . فكانت الحكمة تقتضى ألا أقبل الانتداب من جامعة الخرطوم لهذا المنصب الذى عُرِضَ علىَّ ، وكدت أمضى على هذا الرأى . ولكنى عدانى عنه ، على حزمه وصوابه ، الالتماس الصادق الملح من إخوانى الهَوْسَا ممثلين فى الزملاء الذين ذكرتهم وآخرين من العلية والرؤساء فى كنو وكدونا وسكتو . فصح عزمى آخر الأمر على أن أُقْدِم على تتميم العمل الذى بدأه من قبل مواطنى من الأساتذة والمشايخ السودانيين فى مدرسة العلوم العربية .

ولقد حرصت على كسب الثقة من جانب مدرسة العلوم العربية منذ البداية فالتمست انتداب ناظرها ثم وكيله الذى صار ناظراً لها بعده ليقوما بدور قيادى فى عمل الكلية الجديدة الأكاديمى والإدارى وهما الأستاذ شيخو أحمد

سعيد غلدنشى والأستاذ حسن إبراهيم غورزو . كما حرصت على أن يدخل فى صميم تكوين مجلس الكلية الذى يتولى الإشراف على إدارتها وإعداد مناهجها عدد من خريجى مدرسة العلوم العربية الذين صارت لهم مناصب عالية فى المجالين التعليمى والدينى فدخل فى المجلس مفتش العربية الأستاذ حسين آدم ورئيس القضاة ونائبه الأستاذان أبو بكر محمود قمى وخضر بنجى ومع هؤلاء ممثلون آخرون من مدرسة العلوم العربية نفسها من القائمين بالتدريس فيها .

وقد بدأ العمل بإعداد خطة التدبير العلمى وكانت القوة العددية الإسلامية فى المجلس كفيلة بإجازة أهم الخطوات الأوليات فى هذا الصدد . وكان جلياً منذ أول الشروع فى إجراءات التدبير العلمى أن قلة الطلبة المسجلين للإجازة الجامعية فى الآداب (B.A.) مع ضعف أكثرهم فى مادة اللغة العربية إذ جاءوا من المدارس الثانوية الجديدة القليلة فى الإقليم الشمالى الأفرنجية المناهج والمدرسين ، نقص يجب تلافيه حتى تستطيع الكلية أن تنهض بواجبها الثقافى المؤمل لها حق النهوض ويكون فى ذلك استمرار وتكميل صحيح لعمل مدرسة العلوم العربية .

كان الأستاذ حسين آدم وهو مفتش بوزارة التربية فى الإقليم الشمالى قد قام من قبل بإحصائية لطلبة المدارس القرآنية والمعاهد الدينية فكانوا أكثر من ربع مليون . أقر المجلس أن يعقد امتحان لاختيار نخبة من هذا العدد ، نُهيّئهُم فى مدى عامين بدراسة مكثفة ليجلسوا لامتحان خاص معادل فى جملته لمستوى القبول فى كلية الآداب وكليات العلوم الإنسانية بالجامعة . وكانت إجازة مجلس الأساتذة الكبير بالجامعة نفسها لهذا القرار فى المرحلة البدائية الأولى قبل أن تظهر المعارضة المخبوءة لنا عن أنيابها الحداد . فحمدنا الله على ذلك وكانت خطوة هامة ونصراً فى البداية عظيماً . وكان فيما أجيز من هذا القرار أن الذين يصلون إلى مستوى من التحصيل حسن فى هذه الدراسة المكثفة ولكنه دون معادلة

القبول فى كلية الآداب وكليات العلوم الإنسانية ، يعد لهم برنامج تدريب مهنى فى تعليم العربية فيزاد من هذا الوجه عدد المدرسين ذوى المستوى الجيد الصالحين للعمل فى المدارس الثانوية .

بدأ العمل بالفعل فى تهيئة هذه المدرسة الإعدادية المعتمدة على اجتذاب طلبتها من مدارس القرآن والمعاهد الدينية وكان من ضمن البرنامج المكثف دروس فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية وفى التاريخ والجغرافيا . وكانت تلك أول مرة (فى سنة ١٩٦٤م) تدخل فيها الفرنسية فى برنامج جامعى بنيجيريا . وكنت أفدت من تجربتى بجامعة الخرطوم أن دخول الفرنسية فى منهج التدريس يحد من شهوة تفرد الإنجليزية بدعوى التقدم ويعطى العربية مجالاً . وكما قدمت فإن التغاير والتنافس بين اللغات حقيقة لا ريب فيها . فدخول الفرنسية فى المجال الذى تكون فيه الإنجليزية متفردة بالقوة ينفع العربية كما أن دخول الإنجليزية فى المجال الذى تكون فيه الفرنسية متفردة بالقوة ينفع العربية أيضاً . وإنما اللغات تعبير عن نفوس البشر . وقديماً قال الشاعر :

إنَّما أنْفُسُ الأنيسِ سِباعٌ
يَتَفارَسْنَ جَهْرَةً واغْتِيالا
مَنْ أطاقَ التماسَ شَيءٍ غلابا
واغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسهُ سُؤالا
كُلُّ غَادٍ لحاجَةٍ يَتَمَنَّى
أنْ يَكُونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبالا

أقبل طلبة المدرسة الإعدادية الذين اخترناهم بعد الامتحان ، من المدارس الدينية ، بإقبال شديد على الدروس المكثفة واجتاز أكثرهم امتحان القبول الجامعى نفسه فى ظرف عام واحد . فآذن ذلك بنهاية المدرسة الإعدادية مع كونه قد كان لما أملناه من طلبة المدارس القرآنية والمعاهد الدينية نجاحاً باهراً . ولقد تعددت فرص التعليم الجامعى من بعد فى داخل نيجيريا وخارجها لطلبة المدارس الدينية ، فكأن ذلك قد أغنى عن الاستمرارفى برنامج المدرسة الإعدادية . على أننى ما زلت أعتقد ضرورة

الاستفادة من التعليم القديم وربطه بمجارى التعليم الجامعى الحديث . ذلك لأن التعليم القديم له أساليب من دقة التحصيل وجودته لا تُبْلَغُ إلا من طريقه هو ، فالمحافظة عليه وعليها واجبة . والانتفاع بها لكيما تكون دعماً وجذوراً لتعليمنا الحديث هو أيضاً واجب . وإلا فإننا سنبنى من تعليمنا الحديث صروحاً على أساس من رمل هائر . ولقد حرصت فى جامعة الخرطوم أن أجد سبيلاً لخريجى المعهد العلمى الدينى ليلتحقوا بكلية الآداب وأصبت فى ذلك معارضة شديدة . وقد أمكن آخر الأمر أخذ أعداد منهم فى الدراسة العالية فكان لبعض ذلك نفع ونجاح لا ريب فيه . أحد الذين التحقوا بالدراسة العالية بجامعة الخرطوم الدكتور حسن الفاتح قريب الله الذى صار من بعد مديراً للجامعة الإسلامية بأم درمان . ومنهم الأستاذ الدكتور بابكر البدوى دشين الذى هو الآن أستاذ مرموق بجامعة المدينة .

ولما فتحت الحكومة المصرية بالتماس قوى من السردونة أحمد بلو رئيس وزراء نيجيريا الشمالية وزعيم حزبها الحاكم ، رحمه الله تعالى ، مكتباً ثقافياً بمدينة كنو وأوفدت ثلاثة من المشايخ الأزهريين على رأسهم الشيخ محمد الراوى ، من أجل الوعظ والتنوير ، رأيت لزاماً أن نسارع بالانتفاع بهم فى الكلية وليقع فى نفوس طلبتها الجامعيين منذ البداية معنى الربط بين منهجهم العصرى الحديث وجذور حضارتهم التى يمثلها علم الأزهر وفضله ممثلاً فى الشيخ محمد الراوى وزملائه . ولقد عمدت إلى نوع شبيه بهذه التجربة فى جامعة الخرطوم من بعد ، إذ عهدنا بدروس القراءات والتجويد إلى شيخ متخصص فيها من علماء القراءات هو الشيخ محمد محمد سالم محيسن ، فكان لذلك من التأثير العميق الحميد معنى عظيم .

لا أشك أن مزيداً من التوفر على الربط بين دراستنا الجامعية العصرية وأساليب علومنا القرآنية الدينية القديمة سيكون عظيم المنفعة . هادياً إلى التحرر

من التبعية الفكرية . ولا أغلو إن حسبت أنه ينبغى أن يدرج فى برامج الدراسات العالية طلب تحصيل الأسانيد فى الحديث وغيره من العلوم من مظانها القليلة الباقية عند بعض المشايخ الأجلة فى شتى أقطار الإسلام ، وأن يكون هذا التحصيل نفسه بحسب مقدار جودته كافياً لنيل شهادات الدراسات العالية من أستاذية صغرى (M.A.) أو كبرى (Ph.D.) . وهذا بعد باب لا يتسع المجال لتحليله وتفصيله هاهنا .

من أوائل ما برز من أنياب المعارضة لنشأة كلية عبد الله باييرو محاولات فجة لإغلاقها . بدأت بعرض فرصٍ للرحلة والدراسة فى الخارج لأحد الطلبة فلم يقبلها وقبل راشداً نصيحتنا له بذلك . ثم تلت محاولة لنقل الطلبة كلهم ليدرسوا فى مؤسسات وراء البحار لمدة عام فأبى مجلس الكلية ذلك كل الإباء . ثم جيء بهدية ضخمة من الكتب لتكون أساساً لمكتبة الطلبة ، كلها تبشيرية الروح خالية كل الخلو من معلنى الإسلام ومن بينها معجم فسرت فيه كلمة العذراء بأنها أم الإله المتجسد . فما كان دون رفضها وردها من سبيل .

ثم دخلت أنا وزملائى فى معركة مصير للكلية شديدة النضال لم تخل من عنف وليس هاهنا موضع تفصيل ذلك . وقد كتب لكلية عبد الله باييرو بحمد الله النصر وبتوفيق منه جل جلاله عظيم . وكانت إعادة الكلية لموقعها الأول ذى المساحة الرحبة الواسعة العتيدة للعمل فى أسرع وقت فاتحة هذا النصر ورمزه الواضح . وفى أول يولية سنة ١٩٦٦م أقيم حفل بداية بناء أولى عمارات الكلية التى خطت لتؤوى أولى مكاتبها وقاعاتها ثم تكون من بعد مركزاً لخزانة كتبها . ودعانى المهندسون لأضع أول خلطة من الأساس . وتلى الكتاب العزيز للتبرك . وكان قلم السردونة رحمه الله الأخضر قد جرى يأمر بالعودة إلى الموقع القديم فى أخريات سنة ١٩٦٥م واغتيل شهيداً رحمه الله فى الانقلاب الذى وقع فى ١٥ من يناير سنة ١٩٦٦م بعد أسابيع قليلة

من الأمر الذى أمر به . ووقعت من بعد ذلك بمدة قصيرة محاولة لنقل الكلية إلى زاريا وكأنْ خُيِّلَ لبعضهم أن هذا ممكن ميسور بعد أن خلا الإقليم الشمالى من شخصية السردونة القوية وسلطانه النافذ ولكنها محاولة أُحبطت وكان لاتحاد طلبة كلية عبد الله بابيرو فى إحباطها نصيب وافر . كان رئيس اتحاد الطلبة آنئذ داندتى عبد القادر الذى هو الآن البروفسور داندتى عبد القادر ورئيس جامعة بابيرو .

دعانى البروفيسور داندتى وجامعة بابيرو « وعدد من أساتذتها كانوا تلاميذ لى » إلى كنو لأشهد حفل التخريج وليمنحونى شهادة الدكتوراه الفخرية وكان ذلك فى ١٣ من شهر فبراير سنة ١٩٨٨م . سرنى حين شهدت الحشد الضخم من الخريجين والخريجات فقد صارت كلية عبد الله بابيرو الآن جامعة كبيرة مكتملة الكليات من علمية وإنسانية ومهنية متنوعة ضروب الدراسة ، وقد اتسعت كلية الآداب نفسها وكثرت أقسامها وارتفعت مستويات الدراسة والتحصيل فيها – وقد جاوز عدد الطلبة فى الجامعة عشرة آلاف – هكذا تطورت كلية عبد الله بابيرو بعد تلك البداية المتعثرة ،ومازالت محتفظة بطابع أساسها الأول الذى قام على العربية وعلوم الإسلام ، ومازالت صلتها واشجة بمدرسة العلوم العربية ورصيفاتها اللاتى أنشئن على غرارها فى مدن بلاد هوسا ، من طريق كلية التربية والدراسات العالية فى اللغات والشريعة والقانون .

لقيت الأستاذ حسين آدم الذى كان من مؤسسى كلية عبد الله بابيرو فى سنوات الستين حينما كان هو مفتشاً للغة العربية وحينما كانت الكلية ضِغْثاً مَخْشِيّاً عليه أن يتبدد . جاء ليشهد تخريج ابنة له من كلية الطب .

كان تشريفاً لى أن كُلِّفْتُ إلقاء خطبة قبول شهادة الدكتوراه الفخرية أصالة عن نفسى ونيابة عن الزعيم الإفريقى نلسون مانديلا الذى ناب عنه مندوب من حركة التحرير التى كان يقودها . أما هو

نفسه فقد كان آنئذ فى غيابات السجن بجنوب إفريقية . وهو الآن ، كما لا يخفى قد خلص من ظلماته ليتألق فى آفاق التحرر من سيطرة العدوان العنصرى البغيض .

من المناسب هنا أن أشير إلى قول الله سبحانه وتعالى : " إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " «الآية ١٣ / الحجرت » . وقوله تعالى : "ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء " «الآيتان ٢٧ ، ٢٨ / فاطر » وإلى الحديث الشريف « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ليس فى علوم الأمم كلها ولا فى حكمتها ولا فى مأثور أقوال فلاسفتها ما يضارع النصوص الواضحة المدلول الناصعة البيان فى معانى العدالة والمساواة . الحمد لله على ما هدانا إليه من الصراط المستقيم .

من بعدُ مرت علىَّ تجارب فى تعليم العربية وحضارة الإسلام لم تخرج فى جملتها عن نطاق ما قدمته فى أغراضها ومناهجها . من ذلك مثلاً المركز الإسلامى الإفريقى بالخرطوم . ومن ذلك مثلاً أنه وصلتنى دعوة كريمة من مجموعة طيبة من مواطنىَّ ممن كانوا طلبة لى من قبْلُ لأشارك فى مؤتمر أقيم بمناسبة المولد النبوى فى مقاطعة « أورانج ستيت » (Orange State) بأمريكا ، فكان من خير ما شهدته مجهود جماعة من المسلمين هناك يحفظون أبنائهم الصغار كتاب الله حفظاً متقناً فسمعت منهم من كانت سنه تسعاً ومن كانت سنه إحدى عشرة ومن كانت سنه ثلاث عشرة يقرأون عن ظهر قلب قراءة تجويد وإتقان . وكان من أعجب ما شهدته مدرسة صغيرة يشرف عليها أستاذ من سودان أمريكا درس العربية فأتقنها ، عظيم الإخلاص متوقد الذكاء ، عنده صغار من بنين وبنات كلهم دون العاشرة يقرأون العربية والنحو . فحضرت درساً كان يلقيه عليهم أستاذ نيجيرى يرباوى « أى من ناحية إقليم

إبادان وما حولها » فى النحو أداره حول الحديث الشريف « لا تسبوا الدهر فإننى أنا الدهر بيدى الليل والنهار » – فكان يشرح لهم أن الليل والنهار مبتدأ مؤخر ومعطوف عليه وأن الجار والمجرور خبر مقدم وهم ينصتون ويفهمون ، لم أشك فى ذلك . ذكرنى صنيعه صنيع المعلم خرشى الثانى رحمه الله إذ رأيته قبل نحوٍ من ربع قرن وتلاميذه الصغار ، كلهم دون العاشرة يتلون بترنيم : " ألم نشرح لك صدرك " .

صدق الله جل من قائل إذ يقول : "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " «التوبة / ١٠٥ » .

أهم الدوافع التى تدفع إلى تعلم العربية ثلاثة ، أولها الدافع الدينى إيجاباً وسلباً، نعنى بالدافع السلبى ما تراد به محاربة الإسلام من وراء دراسة لغته وحضارته ، أما الإيجابى فهو الذى يدفع سائر المسلمين من عرب وغيرهم إلى تعلم القرآن والحديث وعلوم اللسان . وثانيها الدافع القومى ، عند العرب المسلمين خاصة ، كأنما هو فرع من الدافع الدينى الإيجابى . هكذا كان الشأن إلى زمان قريب ، غير أنه فى هذه الأيام يريد قوم باسم الحداثة أن يفصلوا بين جانبى الأدب والدين فصلاً ، يعرضون به عن الدين إعراضاً ، وهذا اتجاه خاطىء كما سنبين من بعد إن شاء الله تعالى . وغير المسلمين من العرب يدفعهم إلى تعلم العربية الإلف والدافع القومى كما لا يخفى ، وثالثها الدافع الإنسانى ويلحق به اللون الرومنسى الذى دفع كثيراً من الأوربيين والأمريكيين إلى تعلم العربية ، على أن هذا كان ربما خالطه نوع سالب، تبشيرى الطبيعة أو استعماريها .

وقد كان المستشرقون طوال القرن التاسع عشر ، ولا تزال من مذهبهم بقية باقية ، يتعلمون العربية ليحاربوا بها الإسلام ، وربما تكلفوا الرحلة فى بلاد المسلمين وفى جزيرة العرب من أجل هذا الغرض . وقد خلف الاستشراق القديم

استشراق حديث بعضه لا يخلو من تعاطف ومودة وكثيرٌ منه فيه نظر . وأنفع شيء للمسلمين فى هذا المضمار أن يكونوا أبداً مُتَيقِّظين .

وللعربية جوانب أربعة : قديم وحديث وفصيح ودارج « أو عامى » . القديم أساس وفى أساليب تعليمه القديمة دقة وبركة لما فيها من المشافهة التى تصحح النطق والإملاء الذى تصح به الكتابة ويُجَوَّد فيه الخط والحفظ الذى يربى الذوق ويقوى ملكة اللغة ، والإسناد الذى يوثق الأصول ويشحذ شفرة النقد والتواضع للشيوخ الذى تُعمّق به روح التعلم وفى البدء بالقرآن البركة .

وفى العالم الإسلامى الآن ازدواجية غرسها الاستعمار بمكايده وزادها تغلغلاً شعور المثقفين بالنقص إزاء تفوق العالم الغربى المسيحى فى الصناعات والمهارة الحربية والعلوم العصرية والتمرد الاقتصادى . وقد نشأ من هذه الازدواجية صنفان من التعليم ؛ تعليم علمانى هو الذى تقوم عليه أكثر الجامعات ، وتعليم دينى أخذ هو نفسه يتجه فى الأيام الأخيرة اتجاهاً مُشْرباً بالعلمانية . وقد آن لنا أن نسعى بجد للتخلص من هذه الازدواجية وذلك بأن نستوعب جيل المشايخ وطريقة درسهم القديمة فى جامعاتنا ومدارسنا الحديثة وقد أشرت الإشارة إلى بعض ما مر بنا من مبادىء التجربة وحمدناه فى هذا الصدد .

كانت العربية لسان الحضارة فى العالم الإسلامى كله ، وأقطاره متعددة الأقاليم مختلفة ضروب التجارب البشرية وأنواع النبات والحيوان والطبيعة فى التربة والمعادن والمناخ وغير ذلك – وقد صنف المسلمون فيها من أولى العلم والحذق والدراية كثيراً بالعربية كل فى باب حذقه ودرايته وعلمه ، هذا عدا ما صنف فى الفقه والأدب وعلوم الدين من تفسير وحديث وعقيدة وأصول . فدرس العربية وإتقان علوم لسانها القديمة هو الوسيلة التى لا يوجد غيرها إلى تحصيل ما فى ودائع هذه الكنوز لنستفيد به الآن

فى شئون دنيانا وسبل الاستعداد للعمل الصالح لآخرتنا . لذلك صَرْف النظر عن القديم باسم الحداثة خطأ بالغ ، ومن عجب الأمر أن الإفرنج قد تنبهوا إلى ما فى مخطوطات كتب المسلمين العربية فى شتى أقطارهم من كنوز . فتراهم يفدون الآن إلى بلاد غرب إفريقية مثلاً ليحصلوا على ما كتبه علماؤها فى نباتاتها وصنوف حيوانها وتربتها وعاداتها مع ما كتبوه من الدين واجتهدوا فيه من مسائل الفقه . فمن ذلك ما ينتفعون به فى تدبير التجارب العلمية ومنه ما ينتفعون به فى الدروس الاجتماعية والعلوم الإنسانية . ونحن يالأسف باسم الحداثة عن جميع ذلك غافلون .

والحداثة تتمثل فى لغة الإعلام والصحافة كما تتمثل فى لغة الكلام المشتركة بين المثقفين فى بلاد العرب . والدارجة شىء غير الحداثة . لأن اللغات الدارجة مع قوة صلتها بالأصل الفصيح تختلف بين الأقطار العربية المختلفة ولابد لمن يقيم فى قطر عربى من معرفة لسانه الدارج من أجل الكلام والمعاملة اليومية . وليست محاولة محو الألسن الدارجة لتحل اللسان الإعلامى محلها برأى صائب . أولاً لما فى ذلك من العسر المدانى الاستحالة وثانياً لأن الألسن الدارجة كل منها محتفظ بمادة من أصالة العربية القديمة هى مما يعين على تذوق الأصول القديمة وفهمها . مثلاً كلمة «السليط» بمعنى الزيت وهى فى شعر امرىء القيس تعتبر من الغريب وهذا اللفظ مألوف دائر فى لسان اليمن . وصيغة المبنى للمجهول ما زالت تستعمل فى دارجتنا فى السودان . وإن الاطلاع الجيد على القديم فى أصوله ومراجعه ومعاجمه مما يعين على كشف ضروب من الاستعمال والتراكيب التى في اللغة الدارجة فى أقطار العربية . وهذا أمر لا تخفى أهميته .

هذا وفى لغة الإعلام والصحافة المعاصرة ركاكة وهجنة مما جره الجهل بالنحو والجراءة على استمراء الجهل به بنوع من شعوبية جديدة لا تخلو من

مناوأة للإسلام نفسه ، والتقليد الأعمى للمستويات الدنيا من صحافة الغرب . على أن هذه الهجنة والركاكة مما تستطاع إزالته قريباً إن شاء الله . والإعلام والصحافة على ركاكتهما وهجنتهما ، أو قل على ما فى كثير منهما من هجنة وركاكة ، لابد لطالب العربية من معرفتهما والاهتمام بهما لأنهما طريقا الإخبار والتواصل بأحوال العالم العربى والإسلامى المعاصر . ولا ريب أن الحرص على معرفتهما والاهتمام بهما من جانب طلاب العربية الجادين فى تحصيلها مما يعين على رفع مستوى الإعلام والصحافة ورفع الهجنة والركاكة عنهما إن شاء الله تعالى .

وفى الحداثة المعاصرة بَعْدُ اتجاهات جادة يبلغ بعضها مبلغ التجويد الرفيع كما فى أدب مصطفى صادق الرافعى والزيات والمازنى والعقاد وطه حسين وعبد الوهاب عزام والمنفلوطى وعدد من رجال الجيل الماضى القريب ، ومن الجيل المعاصر من نيلت بعملهم فى باب القصص جائزة نوبل وجائزة الملك فيصل العالمية فنحو هذا مما تنبغى معرفته ودرسه .

ومن النقص الذى يحسن منذ الآن الدأبُ على تلافيه أمر الكتب الملائمة للمبتدئين صغاراً وكباراً ولاسيما المسلمين منهم ، وهذا باب واسع يحتاج إلى إفراد ورقه خاصة به . وأكتفى ها هنا الآن بالتنبيه على ضرورة القيام بإحصاء وحصر لما قد سبق نشره فى هذا الباب مما نَفِدَتْ طبعاته وما لم تَنْفَدْ ، فعسى مثل هذا الحصر أن يعين على فتح باب إلى حل هذه المشكلة وتلافى هذا النقص . ونسأل الله العون والتوفيق إنه قريب سميع مجيب وله الحمد أولاً وآخراً سبحانه وتعالى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان